الإسهام الحضاري للأمة المسلمة

الدكتور سعيد عبد الله حارب

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

الإسهام الحضاري للأمة المسلمة

الدكتور سعيد عبد الله حارب(*)

النفير الحضـــاري عنصر أساس من العنـــاصر العاملة في نشـوء الحضارات.. فـالأمم لا تصنع الحضارة إلا بهمة جماعية تحشـــد فيها قوى الفرد، ثم تحشـــد قوى الأفراد حشدًا جماعيًا لتحقيق هدف معين تحمله الفكرة التي تحدد غاية الحياة..

تعبّر الحضارات الإنسانية على مر العصور عن إسهامٍ لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب في صنع ذلك التراكم الهائل من الأفكار والثقافات والعادات والتقاليد، وكذا الإنتاج المادي لتلك الأمم من صناعات ومخترعات واكتشافات أبدعتها يد الإنسان، انطلاقًا من شعوره بدوره الإنساني تجاه العصر الذي يعيش فيه.

وقد ارتبطت تلك الإسهامات بدوافع عدة كانت الحاجة مبتدأها، وتطورت مع تطور الحياة الإنسانية، وجاءت الأديان لتعطي بعدًا نفسيًا ومعنويًا ومشروعية لذلك الفعل التراكمي، إلا أن ذلك الفعل الحضاري لم يكن حكرًا على الأديان السماوية وحدها بل شاركتها الأديان الوضعية على مختلف العصور.. فإسهام الصينيين والمصريين القدماء، بل وإسهام الهنود والفرس مرورًا بالإغريق، كان للدين دور مؤثر فيه إلا أنه لم يكن الدور الأساس في صنع تلك الحضارات، بدليل أن تلك الحضارات كانت تقترب أو تبتعد عن الأديان في كثير من مراحلها التاريخية وفقاً لموقف الأديان من الفعل الحضاري لتلك المرحلة، ولم يكن الدين وحده المؤصل للحضارة، بل شاركته

(*) نائب مدير جامعة الإمارات العربية المتحدة..

أفكار وفلسفات إنسانية، ولذا لم يكن الدين في تلك المراحل هو المؤثر الوحيد أو المؤثر الأول في صناعة الحضارة. ولعل هذا الأمر يفسر حالة الاندثار أو التراجع للحضارات الإنسانية السابقة التي لم يبق منها إلا آثارها أو أطلالها ولف النسيان ذلك الفعل الحضاري بمجرد زوال المرحلة التاريخية أو الدافعية، وأصبحت تلك الحضارات تاريخًا أو جزءًا من التاريخ.

إن هذه المقدمة تنقلنا إلى تساؤل عن مدى تطبيق هذا المعيار على الحضارة الإسلامية، وهل هي أثر من آثار الدين أم شيئًا منفصلاً يتأثر بالدين ?! وبماذا تختلف الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات?

يعرف ول ديورانت (Will Durant) الحضارة وعواملها بأنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي.. تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون».. ويحدد لها عوامل عدة، من أولها العوامل الجيولوجية، وثانيها العوامل الجغرافية، وثالثها العوامل الاقتصادية، ورابعها العوامل الثقافية[1].

ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نتصور الرؤية الأخرى (غير الإسلامية) للحضارة الإنسانية، إذ تغيب عنها الفكرة أو (الأيديولوجيا)، أو بمعنى أدق الدين كمؤسس للحضارة، أو حتى دافع لها أو مؤثر فيها.. وحتى حين يذكر (ديورانت) من العناصر المكونة للحضارة (التقاليد الخلقية)، فهي ليست بالضرورة منطلقة من فكرة أو دين، بل قد يكون منشأها الحاجة أو البيئة الاجتماعية.. وهذه الرؤية للحضارة لا تختلف اليوم عما كانت عليه في العصور السالفة، إذ ما يزال ينظر للحضارة بعيدًا عن الدين بالمعايير الأربعة التي يمكن أن نطبقها على الحضارة المعاصرة -إن وجدت- ونستطيع بهذه الرؤية المادية -بصفة عامة- أن نتعرف على أسباب

(1) انظر قصة الحضارة، وول ديورانت، ج، ص 3، الإدارة الثقافية، الجامعة العربية، 1995م، ط3.

سقوط الحضارات السابقة واندثارها، إذ أن تراجع عوامل الحضارة أدى إلى انهيارها وسقوطها، بل إن تلك الحضارات كانت تحمل -لماديتها- أسباب سقوطها في داخلها، كما يبين ذلك ابن خلدون حين يرى أن «غاية العمران هي الحضارة والترقي، وأنه إذا بلغ -الترف- غايته انقلب إلى الفساد، وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات، بل نقول: إن الأخلاق الحاصلة عن الحضارة والترف هي عين الفساد» [1].

وهذه الرؤية للحضارات القديمة لا تختلف عن الرؤية المعاصرة للحضارة المادية السائدة، إذ ما تزال معايير (ديورانت) هي التي تقوم عليها الحضارة المعاصرة -إن صحت التسمية- لكن هذا التصور للحضارة يختلف عن التصور الإسلامي لها، بل تختلف تلك المعايير عند التطبيق على الحضارة الإسلامية، ولعل ما يشير إليه الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- أكثر انطباقًا على المفهوم الإسلامي للحضارة، إذ يرى أن عواملها «أربعة هي: الأفكار، وخاصة منها الدينية، والإنسان، والتراب، والزمن.. فالإنسان المقصود به: الفعالية الحضارية التي تتكون في الإنسان.. والتراب: يمثل البيئة الجغرافية التي يعيش فيها.. والزمن: هو الاستثمار الفاعل للوقت.. والفكرة الدينية هي: العامل الأساس في التفعيل لهذه العناصر الثلاثة»[2].

ولعل السؤال يطرح مرة أخرى: إن هذه العوامل الأربعة موجودة في الحضارات الإنسانية عامة، فبماذا اختلفت الحضارة الإسلامية عنها ؟

إن الواقع يشير إلى أن الحضارة الإسلامية تلتقي مع الحضارات الأخرى في ثلاثة من عواملها، إلا أنها تختلف معها في عامل أساس وهو الفكرة أو الدين الذي ترتبط به الحضارة، فإذا كان هذا الارتباط هشًا وضعيفًا عند الحضارات الأخرى فإنه في

(1) مقدمة ابن خلدون، ص 113، طبعة الشعب، القاهرة.
(2) فقه الحضارة، د. عبد المجيد النجار، ص26.

الحضارة الإسلامية يعد الرابط الأساس، إذ تقوم الحضارة الإسلامية على الدين الإسلامي، فهو بالنسبة لها الدافع والمحرك والموجه والمقوم.. ولا يعني ذلك أن الحضارة الإسلامية حضارة دينية (ثيوقراطية) بالمعنى المقدس، بل هي فعل إنساني محركه ومعياره الذي يقاس عليه الدين.. وهذا الرابط هو الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية قديمًا، وهو الذي يحدد دورها في المستقبل.

ومن هنا يمكن تصور استمرار الفعل الحضاري الإسلامي خلال العصور السابقة وتصوره المستقبلي، ولذا تشترك الحضارة الإسلامية مع الحضارات الإنسانية السابقة واللاحقة في كثير من الدوائر وتختلف عنها في دوائر أخرى.. بل إن الحضارة الإسلامية هي الجانب الأكبر من المشترك الإنساني للإسلام ذاته، فلم يأت الدين الإسلامي للمسلمين وحدهم بل جاء للبشرية كافة، وهذا ما تحدده الآيات والأحاديث، وجاء الخطاب القرآني ليتحدث عن (الناس)، فأكد على الانتماء الإنساني الواحد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (النساء:1)، فلم يتحدث عن أب وأم أو نسل، بل تحدث عن (نفس) وهي قاسم إنساني مشترك يذكر الإنسان بارتباطه بالآخر.. وقدم الإسلام عوامل الوحدة الإنسانية على عامل التفرقة الدينية فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ (الحجرات:13).. وتحدث عن تكريم الإنسان لإنسانيته فقال الحق عز وجل﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾الإسراء:70). ولذا نجد (مساحة) الناس أو الإنسان في الخطاب القرآني واسعة ومتعددة.

والمسلم بالطبع يختلف عن غيره في حقيقة الإيمان وخصائص النظام الإسلامي بجوانبه العقائدية والعبادية والتشريعية، فهو ليس مخاطبًا بالتكاليف الاقتصادية أو

العبادية أو التشريعية المرتبطة بسابقتيها لكنه مرتبط بها في رابط الإنسانية التي يلتقي فيها بالمسلم على الأرض، أو المواطنة بحقوقها وواجباتها، أو بالعلائق البشرية التعاهدية أو التعاقدية أو المصالح المشتركة أو غيرها.. وهذه المساحة المشتركة هي التي يمكن تحقيقها من خلال الحضارة، ولذا فما أبدعه المسلمون في حضارتهم لم يكن خاصًا بهم، بل امتد تأثيره إلى البشرية كافة، بل إن الحضارة المعاصرة تدين في كثير من قواعد نهضتها على ما بناه الرواد الأوائل للحضارة الإسلامية، وهذا ما يقرره (البرت تشمبدر) و(ديزلر) و(كويلي بونج) و(أندريه ميكيل) و(آدم متز) و(زيغرد هونكه) وغيرهم، عدا عن الأدبيات الإسلامية التي تمتلئ بالعرض المتكرر عن إنجازات الحضارة الإسلامية وما قدمته للبشرية.. لكن هذه الحضارة تقف اليوم أمام تساؤل كبير، وهو دورها في المستقبل، هل ستمضي في شراكتها الإنسانية وتسهم كما أسهمت في الماضي، أم سيتوقف عطاؤها الإنساني وتصبح حضارة تاريخية يدرسها الباحثون كما يدرسون أي حضارة إنسانية اندثرت ؟

إن الأمر يتطلب أن نحدد عدة منطلقات في إجابتنا على هذا التساؤل: **أولها: فك الارتباط بين الإسلام بشموليته وبين الواقع الإسلامي**، فالحضارة الإسلامية وإن كانت تنطلق من الإسلام إلا أنها لا تعني أنها الإسلام ذاته، بل هي الفعل الإنساني للمسلم.. وهذا الفعل ينطلق من المبادئ والتصورات والرؤى التي يحملها المسلم، وتلك علاقة طردية بين فهمه للإسلام وفعله لما يفهم، ولا يعني هذا بالضرورة الدخول في أحكام شرعية بإيمان المسلم أو عدم إيمانه، وبتطبيق أحكام الإسلام عليه من عدمها، لأن ذلك ليس مدار الفكرة، بل يحكم للمسلم بالإسلام متى نطق بالشهادتين وعمل جهده على تطبيق أحكام الإسلام وتعاليمه، لكن الفكرة تنطلق من مدى ما يطبقه

المسلم ومدلول هذا التطبيق.

ولعل من نافلة القول: التأكيد أن الإسلام دين (سنني)، أي قائم على السنن والأسباب التي قدرها الله سبحانه وتعالى، وتلك السنن لا تختلف ولا تتخلف، متى ما أخذ الإنسان «المسلم» بها تحققت له النتائج السننية لها، فالنهضة –مثلاً– لها أسباب، منها: الأخذ بالعلم والقوة بصورها المختلفة التي تتفاوت بين الصدارة والمؤخرة، فتارة يتقدم الاقتصاد ليتراجع الجهاد، وتارة يتصدر الإيمان ليتأخر الاقتصاد وفقًا للحاجات الزمنية والمكانية، لكنها تبقى في النهاية عوامل قوة متى ما قدم لها الإنسان (المسلم) مقدماتها جنى نتاجها، وهو في ذلك لا يختلف عن الإنسان (الآخر)، ولذا لا يمكن الحكم عن إمكانية إسهام الحضارة الإسلامية في عالم الغد من واقع حياة المسلمين، إذ ليس عيبًا في الأسباب أن لا يأخذ الإنسان بها، بل عيب في الإنسان أن لا يأخذ بالأسباب!! ولذا فالتخلف الظاهر في حياة المسلمين اليوم ليس تخلفًا إسلاميًا!! بمقدار ما هو تخلف في الفعل الحضاري للإنسان المسلم، وتراجع عن الأخذ بأسباب النهضة الحضارية التي أخذ بها (الآخر) وعمل بأسبابها وحقق نتائجها.

أما ثاني المنطلقات فهو: **أن الحضارة الإسلامية حضارة مستمرة لا تعرف الاندثار**، قد تتراجع أو تقصر عن الفعل أو الإسهام في صناعة الحضارة الإنسانية في فترة تاريخية محددة، لكنها تملك مقومات النهوض بها، لأن القول بإمكانية اندثار الحضارة الإسلامية إنما يعني توقف الجانب الإنساني في الفعل أو العطاء من الإسلام، أي في فعل المسلم لذاته أو عطائه لغيره.. فإذا كانت الحضارة هي الوجه الإنساني للإسلام، فإن القول بإمكانية اندثارها يعني القول باندثار هذا الجانب وتراجع الإسلام ليصبح دينًا (قوميًا) أو مرحليًا أو محدودًا على فئة من البشر، وتلك قضية مناقضة

لجوهر الإسلام الذي جاء (رحمة للعالمين) واستقر الأمر على حفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:9).

الأمر الثالث هو: المرجعية التي تستند عليها الحضارة الإسلامية، إذ أن مرجعيتها هي الإسلام ذاته من خلال مصادره الأصلية أو الفرعية، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المرجعية الثابتة والمستقرة للحضارة الإسلامية، التي تمدها بالدفع والتحريك من خلال النصوص العامة ذات الدلالة التي ترتقي على البعد الزماني والمكاني وتستمر في عطائها الحضاري عبر وتيرة تاريخية ترتفع وتنخفض وفقًا للفعل الذي يقوم به المسلم أو الأمة الإسلامية مع ثبات في الأصل وثبات في الحد الأدنى من هذا الفعل الذي يشكل الصفة اللازمة للأمة حين يقرر (إسلاميتها)، إذ تحدد الخصائص العامة للأمة تلك الصفة الملازمة لها والتي تفرق بينها وبين الأمم الأخرى ذات الخصائص أو الصفات الملازمة لها كذلك.

لكن الأمة المسلمة (الأداة الفاعلة للحضارة) لا تستمد تلك الصفة من (قوم) أو (أرض) أو (عطاء) وإنما تستمدها من الدين، وتلك علامة فارقة بينها وبين الأمم أو الحضارات الأخرى، إذ لا توجد حضارة دينية بالمعنى الدقيق، فليس هناك حضارة بوذية أو هندوسية أو مسيحية أو يهودية أو غيرها من الأديان، بل تستمد الحضارات صفتها من الأرض أو القوم.. كالحضارة الفارسية أو الهندية أو البيزنطية أو الإغريقية أو المصرية القديمة أو غيرها من تلك المسميات التي تعبر عن حضارات انتهت، بل حتى حين نتجاوز عن تطبيق مفهوم الحضارة بصفة دقيقة، ونطلق على المدنية السائدة اليوم لفظ الحضارة فإننا ننسبها إلى أرض أو جهة.. إذ يتحدث العالم اليوم عن (الحضارة) الغربية أو الحضارة الأمريكية أو غيرها، لكن الحضارة الإسلامية، وحدها التي تستمد صفتها من الدين، كما أن أداتها المنفذة لها تستمد كذلك صفتها من الدين فنقول: الإنسان

(المسلم) أو الأمة (المسلمة)، بل إن من معاني لفظ الأمة: الدين ذاته، كما يقول الطبري (لأن الأصل أن يقال للقوم يجتمعون على دين واحد: أمة، فتقام الأمة مقام الدين)، ويقول في تفسير قوله تعالى﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (البقرة:213)، يقول: «إن الله عز وجل أخبر عباده أن الناس كانوا أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة».

وهذا ما ذكره النبي ﷺ حين أبرم العهد مع اليهود في المدينة، إذ جاء فيه «هذا كتاب من مُحَمَّد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و(أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس... وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم... »[1].

ولذا فقد ارتبط مفهوم الأمة في الإسلام بمفهوم الدين، ويؤكد هذا قول الحق تبارك وتعالى﴿:إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:92)، ولذا فإن «الأمة» بالمعنى الإسلامي هي انتماء ديني وعقدي وليست انتماءً عنصريًا لجنس من الأجناس أو عرق من الأعراق. ومن ثم فقد قامت الأمة الإسلامية خلال التاريخ من جميع العناصر التي استجابت لرسالة الإسلام بغض النظر عن انتسابها لجنس من أجناس البشر.. وهذا الانتماء الديني العقدي الذي قامت عليه الأمة في الإسلام لا ينفي الانتماء العرقي الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ (الحجرات:13).

فإذا كانت الأمة –كأداة صانعة للحضارة– تعتمد في مرجعيتها على الإسلام

(1) الوثائق السياسية، محمد حميد الله، ص 15، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1956م.

ذاته، بمصدره الثابت التي تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه ومصدره الثاني الذي يلائم الزمان والمكان، فإن ذلك يضيف ثباتًا آخر للحضارة الإسلامية، حيث إن مرجعيتها وأداءها ثابتان ومستمران، ولذا فقد عاشت الأمة المسلمة خلال مراحل التاريخ المختلفة وخرجت من سيرورة المآل الذي آلت إليه الحضارات السابقة، فبقيت مستعصية على الزوال الذي أطاح بالحضارات السابقة، إما لطول زمن أو لاندثار آلة أو لغلبة (الآخرين) عليها، كما يشير إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته إذ يقول:

«الأمة إذا غُلبت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء، والسبب في ذلك -والله أعلم- ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا مُلك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التناسل، والاعتمار إنما هو من جدة الأمل.. فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذات هبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب وطعمة لكل آكل.. فلا يزال يأخذهم الفناء، والبقاء لله وحده، واعتبر ذلك في أمة الفرس، كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب.. ولما تحصلوا في ملكة العرب.. لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ودثروا كأن لم يكونوا، ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم، فملكة الإسلام في العدل ما علمت، وإنما هي طبيعة في الإنسان إذا غُلب على أمره وصار آلة لغيره»[1].

وحين نمعن النظر في هذ القاعدة (الخلدونية)، نجد أنها تنطبق على كافة الحضارات التي سبقت حضارة الإسلام، بل يمكن تطبيقها على الواقع المعاصر سواء

(1) انظر: مقدمة ابن خلدون، 561/2.

اتفقنا على تسميته بالحضارة أو اختلفنا، بل يمكن تطبيقها على دوائر أضيق من الحضارة.. فمآلات الدول المتأخرة تشير إلى صدق هذه القاعدة، وما انهيار النظام الشيوعي كفكرة وتطبيق إلا دلالة واضحة على ذلك، لكننا نقف كثيرًا عند تطبيق هذه القاعدة على الحضارة الإسلامية، فقد بقيت مستعصية على الفناء أو الانهيار، ولا نعني بذلك الاستعصاء على التراجع عن موقع الصدارة المادية، أي بما تقدمه من عطاء مادي علمي أو فلسفي فذلك واضح لا يحتاج إلى دليل، إذ تراجع المسلمون أشواطًا كثيرة! لكن الاستعصاء يكمن في قدرة الحضارة الإسلامية على المحافظة على مقومات النهوض، وتملكها لبذور الاستمرار التي متى رويت بماء النماء أينعت وأثمرت.

ولعل كثيرًا ممن يشدهم الواقع الذي يعيشه المسلمون يرون في ذلك شطحات (خيال) أو (لا واقعية) في التصور، لكن التاريخ علمنا أن هذه الحضارة قادرة على العودة إلى الصف الأول مع غيرها من الحضارات إن لم تكن في مقدمتهم، وقادرة على الإسهام مع غيرها في صنع حضارة إنسانية تحقق للإنسان مبتغاه من الحياة الكريمة، ولذا فإن ما يستقبل الأمة الإسلامية من إسهام حضاري ينطلق من تلك المقدمات التي لابد من إيضاحها حتى نبين ذلك الدور المرتقب الذي قد يكون بعضه مستمرًا كقاسم تاريخي مشترك، بينما يبرز بعضه الآخر بين فترة وأخرى، في حين تأتي أدوار جديدة لإسهامات الحضارة الإسلامية وفقاً لحاجة الزمان والمكان الذي تقوم فيه تلك الحاجة، ويبرز في مقدمة ذلك الإسهام ما يمكن أن نصطلح عليه بالشهود الحضاري انطلاقًا من قوله تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:143).

وقد ختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، وذهب المفسرون في ذلك مذاهب شتى، إذ تحدث بعضهم عن الشهادة في الآخرة، مثلما أشار

ابن كثير في تفسيره، من ذلك الحديث الذي يرويه الحاكم في مستدركه عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ: «**أَنَا وَأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ مُشْرِفِينَ عَلَى الْخَلَائِقِ، مَا مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا وَدَّ أَنَّهُ مِنَّا، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ إِلَّا وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّهُ بَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ**» ..

لكن مفسرين آخرين ذهبوا إلى أن الشهود ليس في الآخرة فقط، بل هناك شهود في الحياة كذلك مثلما يقول عطاء: إن «أمة مُحَمَّد شهداء على من ترك الحق حين جاءه بالإيمان والهدى من كان قبلنا، ورسول الله ﷺ شاهد على أمته وهم شهداء على الأمم، وهم أحد الأشهاد الذين قال الله عز وجل ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ (غافر:51).. وكما يقول الطبري في تفسيره (شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون الرسول مُحَمَّد ﷺ شهيدًا عليكم بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي».

والشهود الذي تقوم به الأمة الإسلامية قائم على معايير ثلاثة هي: الوسطية، والرحمة، والخيرية، وهو ما أكدته الآية، إذ أن معيار الوسطية أعطى الأمة الإسلامية حالة من الاعتدال الذي يجعلها مقياسًا تقاس عليه الأمم السابقة التي أفرطت أو فرضت، «فلما كان الوسط مجانبًا للغلو والتقصير كان محمودًا، أي هذه الأمة لم تغلو غلو النصارى في أنبيائهم، ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم» [1].. وتلك الوسطية قائمة على ما حظى الله سبحانه وتعالى هذه الأمة «بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ

(1) تفسير القرطبي، شبكة الإنترنت على عنوان: htt://quran.al-islam.com/odefaulta.htm .

شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (الحج:78) [1].

أما المعيار الثاني فقوامه الرأفة والرحمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى للناس كافة، وقد جمع بين الرأفة التي هي أشد من الرحمة -كما يقول عمرو بن العلاء- للتأكيد على أن الناس جميعًا محتاجون إلى رحمة الله ورأفته).. ويؤكد هذا الفهم الحضاري للرأفة والرحمة قول النبي ﷺ في الصحيح عندما رأى امرأة من السَّبْيِ قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبيًا من السَّبْيِ أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ: «**أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ**»؟ قالوا: لا... قال: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(البخاري).

ومن هنا فإن الحضارة الإسلامية حين تميز بهذا الوصف، أي بالرأفة والرحمة باعتبارها تمثل الأمر الإلهي تطبيقًا وتحقيقًا، فإنها تحمل في مضمونها معنى الشهود الحضاري، خاصة وأنها قد تيسرت له إمكانية القيام بهذا الدور من خلال المعيار الثالث الذي اتصفت به لقوله تعالى﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾(آل عمران:110)، فقد ربطت الآيات بين الخيرية وفعل الخيرية من خلال ثلاثة جوانب هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما لفظان عامان يدلان على القيام بدور في تحقيق الخيرية للناس، فهذا المعنى يعطي لهذه الأمة دورًا بين الناس وهو دفعهم للمعروف.. أي معروف، دون تحديد ممن ولمن وكيف ؟ كما أنه لفظ يخرج من إطاره الزمني والمكاني ليمتد عبر الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومثل ذلك في النهي عن المنكر، لكن الملاحظ أن الإيمان بالله، وهو أحد أضلاع الخيرية، جاء في آخر الترتيب حتى لا يتصور أحد -والله

(1) تفسير ابن كثير، شبكة الإنترنت على عنوان: htt://quran.al-islam.com/odefaulta.htm .

أعلم- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو للمؤمنين فقط، بل هو منهم ولهم وللناس كافة إن هم أرادوا تحقيق الخيرية في أنفسهم، يقول القرطبي في تفسير هذه الأمة هو: مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطأوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم الذم، وكان ذلك سببًا لهلاكهم.

وبناء على أن الإسلام عالمي الهدف، فإن الحضارة التي تنشأ به ليست بالحضارة المنكفئة على ذاتها، حبيسة لدائرة المجتمع الإسلامي فحسب، بل هي حضارة تجعل من همومها الانتشار بين الناس، ومن ثم فإن لها بعدًا إنسانيًا عامًا كمبدأ أساس من مبادئها. وحينما يكون الأمر كذلك، فإن التحضر الإسلامي، كما كان له بعده الداخلي المتعلق بدائرة المجتمع الإسلامي، فإن له بعده الإنساني المتعلق بالموقف من الناس عامة، وإذا تجاوزنا المعنى الغيبي الذي تحمله الشهادة على الناس كما ذكره المفسرون متمثلاً في شهادة الأمة الإسلامية في اليوم الآخر على الأمم على أنهم قد بُلغوا رسالات ربهم، إذا تجاوزنا ذلك إلى معنى الشهادة على الناس في الدنيا، فإن هذه الشهادة في ظاهرها هي الإخبار عن أمر وقع العلم به لإقامة حق يتوقف عليه ذلك الإخبار. وهو ما يقوم على أربعة عناصر أساسية:

العلم الذي هو أساس الشهادة، والبيان والإظهار لذلك العلم، ثم تبليغ ذلك العلم بحيث يصير واصلاً إلى الآخرين على الوجه المقنع، ثم العدل في كل ذلك حتى تكون الشهادة مفضية إلى نفع المشهود عليهم.

تلك هي الشهادة على الناس التي يقوم عليها التحضر الإسلامي تأسيسًا في مبادئ الدين، وتطبيقًا في السيرة العملية للحضارة الإسلامية. إنها شهادة تنطلق من تصور عقدي للإنسان الذي خلق للنعمة، وكرم تكريمًا، وحمل الأمانة تعظيمًا.. وبناء على ذلك فإن التحضر الإسلامي يشهد على الناس بشهادة العلم بحقائق الدين

والكون والناس، ثم شهادة على الناس بتبليغ تلك الحقائق تبليغ إنقاذ وإصلاح ونشر للخير، شهادة عدل في الموقع الوسطي بين المتطرفات في الأفكار والسلوك، ليكون ذلك الموقع مثوبة لمن ترهق فطرته مسالك التطرف، وشهادة عدل في الحكم بين الناس بالتعامل المتساوي معهم، وبرد جائرهم عن مظلومهم، ونصرة المستضعفين والمقهورين.

هذه هي شهادة التحضر الإسلامي على الناس، وهي شهادة لا يضيرها خروقات الأفراد والحالات الجزئية المعزولة إذا ما ظلت قائمة في عمومها زمن التحضر. وهي إذا ما خفتت بانحدار الأمة، فإنه لا ينهض تحضر إسلامي إلا على أساسها، وإلا فهو تحضر غير إسلامي. وما أكثرها من حضارات لا يبالي أهلها بالناس إلا أن يتخذوهم مرقاة لأغراضهم الخاصة[1].

ولعل من الإسهام الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، المشاركة في صنع حضارة إنسانية معاصرة، فقد تعالت الصيحات الإنسانية محذرة من مآل البشرية في عالم يموج بالماديات وتتراجع فيه الروحيات يومًا بعد يوم مما ينعكس على حياة الإنسان ذاته.. لقد تحدث الدكتور (ليبولد مينون) أستاذ التربية الأمريكي، قائلاً: «لقد حققنا خلال العقود الثلاثة الماضية للبشرية ما لم تحققه خلال ثلاثة قرون، فغزونا الفضاء، وفجرنا الذرة، واجتزنا المسافات.. كل ذلك من أجل الإنسان، لكننا اكتشفنا بعد ذلك أننا نسينا الإنسان ذاته».

ولذا فلا يمكن تصور وجود حضارة معاصرة اللهم إلا إذا اعتبرنا الإنجاز المادي الذي حققته البشرية -تجاوزًا- إنجازًا حضاريًا، إذ الحضارة لا تتشكل من جناح واحد، ولا تطير إلا بجناحين، جناح العلم، وجناح الروح، وهما جناحان متوزعان في عالم اليوم، فمن يملك العلوم والمعارف لا يملك الروح والقيم والفضائل، إلا قليلاً، ومثل ذلك القليل

(1) انظر: فقه التحضر الإسلامي، د. عبد المجيد النجار، ص 34، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

من العلم الذي يملكه من يملك الروح والقيم والفضائل، فلم يحقق أي من الطرفين حضارة متكاملة بالمعنى الدقيق للحضارة.. والأمة المسلمة تملك الأصل الثابت للحضارة وهو جانبها الروحي لكنها تفتقد الجانب العلمي المادي.. وحين تعجز عن صنع حضارة خاصة بها فلا أقل من المشاركة مع الآخرين في صنع تلك الحضارة والعمل على إيجاد حضارة إنسانية معاصرة ومتوازنة.

إن الرجوع إلى ماضي الأمة الإسلامية والاستشهاد بنموذجها الرائع حين أبدعت إنتاجًا علميًا حضاريًا عظيمًا لا يكفي وحده لبناء حضارة جديدة.. فما فعله بن علي ابن يونس والبيروني والمجريطي وابن خلدون وابن رشد والخوارزمي ومُحَمَّد بن أحمد مخترع الصفر، وابن الهيثم وجابر بن حيان وأبو بكر الرازي وابن سينا وابن زهر وأبو القاسم بن عباس وغيرهم من علماء الإسلام الذين برعوا في المعارف والعلوم ووضعوا أسسًا لحضارة استمد الغرب منها قواعده ليبني عليها مدنيته -كل أولئك- تركوا تراثًا عظيمًا توقف عن النماء حين تخلى المسلمون عن دورهم الحضاري.. ولا يمكن أن يعود ذلك التراث، بل لا بد من بناء جديد يقوم على معطيات وحاجيات جديدة، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال التفعيل الروحي، أولاً باعتبار ذلك أساسًا لبناء واستمرارية الحضارة وحتى لا تكون عرضة للهدم والانحراف.

والأمة المسلمة هي الأقدر على تقديم هذا الجانب لما تملكه من مصادر ثابتة وملائمة لتحقيق الغرض من خلال تطبيقاتها الواقعية التي أثبتت الحاجة الإنسانية لها حتى مع اختلاف الدين أو المعتقد، لكن الواقع الذي يعيشه المسلمون يقف حائلاً دون تحقيق هذه الروحية، إذ مع سموها وارتفاع مكانتها وقدرها لا تجد من يحسن عرضها، فهي كسلعة جيدة في سوق كاسدة!! ومع ذلك فإن هذه الروحية على الرغم من الظروف التي تحيط بها تجد لها مسارب تنساب فيها لتصل إلى طالبي الحقيقة من الناس،

وهذا ما يفسر الإقبال على الدخول في الإسلام من مجموعات وأفراد لم يجدوا راحتهم الروحية إلا مع الإسلام.

وإذا كان هذا شأن الأفراد والمجموعات، فإن الأمم والحضارات لا تقل شأنًا وحاجة عنها، فالخواء الروحي الذي يلف العالم اليوم دعا عقلاء البشر ليجأروا بالدعوة إلى إحلال الروحانيات في حياة الإنسان تحقيقًا للتوازن مع حياته المادية وتحقيقًا للاستقرار الداخلي حتى يعيش الإنسان حياة مطمئنة.. كما أن تلك المشاركة لا تعني العزلة والانكفاء بل التفاعل مع العالم المحيط، والتعامل مع احتياجاته بروح من المشاركة والتسامح، تحقيقًا لغاية الإسلام ورسالته للبشرية كافة والتقاءً مع بني البشر فيما يحقق سعادتهم واطمئنانهم، إذ تواجه البشرية اليوم عددًا من التحديات والمشكلات التي تحول دون سعادتها.. ولعل في مقدمتها إحلال الأمن المشترك والسلام العالمي، إذ يعتبر الأمن إحدى الضروريات الهامة التي يحتاجها الناس الذين يسعون إلى الاستقرار، ولذلك فإن الدول على مختلف اتجاهاتها وأنظمتها السياسية تسعى إلى المحافظة على أمنها الداخلي والخارجي، وتتخذ وسائل شتى لتحقيق ذلك، وتختلف هذ الوسائل من دولة إلى أخرى كما تختلف من عصر إلى آخر.

وإذا كان الأمن الداخلي مسألة خاصة بكل دولة منفردة، فإن الأمن الخارجي يعتبر من المسائل التي تشترك فيها الدول، وتتعارف فيما بينها لتحقيق ذلك، ويعتبر تعاونها في هذا المجال ضروريًا لاستمرار الأمن والسلام بينها.

ولقد كان الأمن الخارجي مسألة مهمة في مختلف العصور، فقد كانت القبائل المختلفة تسعى لذلك من خلال عقدها للاتفاقيات فيما بينها بشأن عدم الاعتداء والتعاون فيما بينها لصد الاعتداءات الخارجية.. وكانت الدول تلتقي على أسباب مختلفة لهذا التعاون، حيث كانت المصلحة المشتركة هي إحدى ركائز التعاون بينها.

وجاءت الحضارة الإسلامية متمثلة في الأمة والدولة المسلمة لتعطي مفهوم الأمن المشترك تميزًا عما كانت عليه الأمم السابقة، فإذا كانت دول العالم تسعى لإقرار الأمن بينها حتى تمنع العدوان وتقر حالة السلم القائم، فإن الأمة المسلمة تجعل من الأمن المشترك وسيلة لإيصال الدعوة للآخرين، فالأمن بالنسبة لها ضرورة مهمة حتى تستطيع أن تبلغ دعوة الله للناس كافة.

كما أن الأمن المشترك الذي تسعى له الأمة الإسلامية مع غيرها يهدف إلى ضمان الأمن والاستقرار الداخلي، فعدم التدخل في الشؤون الداخلية يأتي في مقدمة ما تسعى إليه الاتفاقيات والمعاهدات التي تعقدها الدولة المسلمة مع المجموعات والدول الأخرى.

كما أن اجتماع الدول الإسلامية مع بعض الدول الأخرى في رقعة جغرافية واحدة يجعلها تسعى إلى أن تشترك مع غيرها في حماية هذه المنطقة من الاعتداء عليها من قبل القوى الخارجية.

فقد سعى الرسول ﷺ إلى تنظيم مسألة الأمن مع القوى الأخرى التي كانت تسكن المدينة عندما بدأ الخطوات الأولى في تأسيس الدول الإسلامية.

وكان اليهود من أبرز المجموعات الموجودة في المدينة حال تأسيس الدول المسلمة، ولذلك فقد خصهم الرسول ﷺ ببنود خاصة في الوثيقة التي أقامها بين المسلمين من جهة واليهود من جهة أخرى، فقد كان اليهود يشاركون المسلمين في المدينة، ولذا وجب أن تنظم معهم العلاقة بشكل عام، والأمن بشكل خاص، لأنهم كانوا يقفون من الدعوة الإسلامية موقف العداء، ولذا أراد الرسول ﷺ أن يأمن جانبهم فنص في الوثيقة على أن: «... من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم

النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. وأن بينهم النصر [على] من دهم يثرب، وإذا دعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعَوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين... وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو إثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومُحَمَّد رسول الله»[1].

ويتبين من خلال هذا العهد أن الرسول ﷺ قد جعل جزءًا من مسؤولية الأمن على اليهود، لأنهم يعيشون في المدينة ويستمتعون بالاستقرار والطمأنينة فيها، ولذا يجب عليهم أن يساهموا في حفظ أمنها من جانبهم سواء تعرض هذا الأمن لاعتداء منهم أم من القرى الخارجية، ويبدو ذلك من خلال النص الصريح: «وأن بينهم النصر على من دهم يثرب»، ولذا فحين تعرض أمن المدينة إلى الخطر من اليهود أجلاهم الرسول ﷺ منها في الوقائع التي ترويها كتب السيرة والمتعلقة بإخراج يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة من المدينة.

وإذا كان الأمن المشترك مبدأ تلتقي فيه الأمة المسلمة مع غيرها، فإن السلام العالمي مبدأ عظيم جاء الإسلام ليقره ويحدده على منهج جديد، ليس كذلك المنهج الذي اختاره دعاة السلام العالمي من زعماء ومفكري العالم الغربي.

والإسلام لا ينظر إلى السلام العالمي نظرة جزئية، بل ينظر إليه نظرة شمولية في كل جوانبها، فمن حيث الأرض والمساحة الجغرافية نجد الإسلام لا يحدد أرضًا معينة تعيش في سلام، بل يقرر أن السلام يجب أن يسود العالم أجمع وذلك لأن دعوة الإسلام دعوة عالمية، قال تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾

(1) الوثائق السياسية، محمد حميد الله، ص 17-21، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1956م.

(الأنبياء:107).

أما من حيث البشر، فلم يفرق الإسلام بين المسلمين وغيرهم في السلام، بل جعل السلام حقًا للجميع، يتمتع به في ظل حماية دائمة مقرونة بالقوة التي تكون على استعداد تام لرد كل عدوان يخل بهذا السلام. قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ (البقرة:208).

فهو يطلب من المسلمين أن يدخلوا في السلم.. وذهب بعض العلماء والمفسرين إلى أن المقصود بالخطاب، الذين آمنوا بالأنبياء جميعًا، فهي دعوة للبشرية جمعاء إلى الدخول في السلم[1].

ولذا فالعلاقة بين البشر ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام، فأما اختلاف الألسن والطباع والأخلاق واختلاف المواهب والاستعدادات فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني حساب في ميزان الله.

وإذا كان هذا هو البعد البشري للسلام العالمي في الإسلام، فإن البعد الزمني لا يتوقف عند فترة زمنية محدودة، بل يتجاوز ذلك إلى أي زمان تكون فيه للإسلام دولة، فهي مطالبة بأن يكون لها دور إيجابي في السلام العالمي.

هكذا تكون النظرة الإسلامية الشاملة للسلام العالمي، فالإسلام في طبيعته الحالية ونظرته إلى الحياة لا يجزئ السلام، ولا ينشده في حقل مفرد من حقول الحياة، وإنما يجعل السلام كله وحدة، ويحاول تحقيقه في كل حقل، ويربط بينه وبين الفكرة الكلية عن الكون والحياة والإنسان، وبذلك تصبح كلمة (السلام)، التي يعنيها الإسلام ذات دلالة أعمق وأشمل من معناها الذي تتعارف عليه الدول في هذه الأيام.

(1) انظر: تفسير المنار، رشيد رضا، 258/2.

فهو السلام الذي يحقق كلمة الله في الأرض من العدل والأمن لجميع الناس، لا مجرد الكف عن الحرب بأي ثمن مهما يقع في الأرض من ظلم ومن فساد.

والإسلام حين يقر السلام العالمي ينظر إليه نظرة موضوعية واقعية، وليست نظرة خيالية -كما يصورها علماء الغرب- فالإسلام يرى أن البشرية لا يمكن أن تكون على سوية واحدة من الفضائل فيكون بينها السلام والأمن، بل إن هناك من يوقن بهذا الأمن والسلام ويقبله وهناك من يرفضه بل يحاربه، ولذا فإنه لا يقر كثيرًا من المبادئ التي قامت عليها النظرة الغربية للسلام العالمي، بل له نظراته الخاصة في ذلك، كما أن الإسلام لا ينظر أن يحل السلام بإسلام الناس كافة، فهذا أمر لا يملكه البشر، ولذلك فإن الإسلام لا يبني أحكامه في السلام العالمي على أساس انتظار أن يسلم الناس جميعًا، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك فقال:﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يوسف:103).

ويقول تعالى:﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس:99).

بل يبين الإسلام أحكامه على أساس إمكانية التقاء الشعوب والدول والبشرية عامة على مبدأ السلام العالمي، بحيث يحفظ للناس استقرارهم وأمنهم.

والإسلام يرفض فكرة الحرب لذاتها، ويجعل الحرب والجهاد وسائل لأهداف عليا مختلفة، وجعل السلام فضيلة يسعى لها، خاصة إذا كان في هذا السلام نصرة للمظلوم وحفظ حقوق الناس من حرية المعتقد والتملك وغيرها من الحريات الفردية والجماعية.

فنصرة المظلوم وحماية الناس من الظلم هدف يسعى له الإسلام، ولذا نجد رسول الله ﷺ يشارك قبل البعثة في حلف التقت عليه قريش من أجل نصرة المظلوم، فقد ذكر

ابن هشام أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤي، لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده، بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمته قريش بذلك حلف الفضول)[1].

وقد حضر هذا الحلف رسول الله ﷺ، وأقره بإعطائه الشرعية له بعد البعثة حين قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه ابن إسحاق قال: «**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ**»[2].

وبذلك وضع رسول الله ﷺ الأسس الأولى للتعاون بين المسلمين وغيرهم لنصرة المظلوم ورد العدوان، وهذا لب ما تقوم عليه دعوة السلام العالمي في الإسلام.

إن السلام العالمي في الإسلام هو السلام الذي يعيش فيه الناس جميعًا في أمن وطمأنينة وسلام دائم دون تفريق بينهم لجنس أو للون أو نسب، في حرية تمكنهم من اختيار المعتقد الذي يريدونه بعد أن تبلغهم دعوة الإسلام، وأن لا تقف فيه قوة أو مجموعة من الناس أمام هذه الدعوة، ولذلك فإن موقف الإسلام من مبادئ السلام العالمي يمكن تبينها في المساواة بين الدول على أساس الحقوق والواجبات، فالإسلام يقر للناس حقوقهم ويطلب منهم أن يؤدوا واجباتهم من خلال ما يتم الاتفاق عليه بينهم دون أن يعطي لأي دولة حقًا لا يعطى لغيرهم، كما نجد فيما يسمى بحقوق الدول الكبرى!!

وكذا عدم التدخل في شؤون الدول الأخرى، وهذا المبدأ يقره الإسلام إذا كانت هذه الشؤون لا علاقة لها بالمسلمين سواء كانوا من ديار الإسلام أو في الدول الأخرى،

(1) السيرة النبوية، ابن هشام، 1222/1.
(2) المصدر نفسه.

فالإسلام يتدخل لحماية المسلمين أينما كانوا، كما أنه يقف إلى جانب المظلومين سواء كانوا مسلمين أم غيرهم، وسواء كانوا شعوبًا أم أفرادًا، لأن أساس دعوة السلام العالمي في الإسلام هو نصرة المظلوم.

ويقر الإسلام القانون العالمي فيما يتفق مع الشريعة الإسلامية، وتلتزم الأمة المسلمة بما يتفق عليه المجتمع الدولي من معاهدات واتفاقيات لحفظ السلام العالمي، وتخدم هذه الاتفاقيات من أجل أن تعيش البشرية في سلام وأمن دائم، «ولن يقوم السلام بين دول العالم المختلفة إلا إذا احترمت كل دولة كلمتها ووفت بعهدها ومواثيقها».

ولا يرفض المسلمون قيام المنظمات الدولية -من خلال المواثيق والمعاهدات- لحفظ السلام العالمي، ولكن يشترط لهذه المنظمات أن تكون مستقلة عن سيطرة أي قوة من القوى، كما تلتزم بتحقيق السلام ونصرة المظلوم والحفاظ على الأمن والسلام العالمي، وأن يكون لديها من الإمكانيات ما يمكنها من تحقيق ذلك.

كما أن دعوة السلام العالمي في الإسلام تقوم على التسامح والتعاون بين البشر، حتى مع المخالفين لهم في العقيدة، ولذلك فلا موطن في نفوس المسلمين لما يسمى (الحقد الديني)، لأن المبدأ الذي يحدد العلاقة بين جماعة المسلمين وبين مخالفيهم هو التسامح.

وروح التسامح هذه لا يتعامل بها الإسلام مع فئة أو جماعة، وإنما يتعامل بها مع الناس كافة، فهي روح تمكن له من إقرار السلام في الأرض ومن تأليف الأجناس والألوان والأديان، ومن إشاعة السماحة والود والتراحم بين بني البشر، ومن تنقية جو الحياة من سموم التحاسد الفردي، والتطاحن الطبقي، والتناحر العنصري والتعصب الديني، كما تمكنه من كف الحروب والمجازر التي تقوم على تلك الأسباب وعلى

الرغبة في الفتح والتوسع لمجرد الاستغلال المادي أو العظمة الكاذبة» [1].

ولعل من الإسهام للأمة المسلمة في عالم الغد، مشاركتها في صنع التقدم المادي الذي يلف العالم المعاصر، إذ أن حالة التخلف المادي الذي تعيشه الأمة المسلمة مدعاة لاستنهاض الطاقات والإمكانات من أجل تلك المشاركة تحقيقًا لمتطلبات التنمية الشاملة التي يحتاجها المسلمون، وقيامًا بالدور المنوط بهذه الأمة باعتبارها أمة ذات رسالة تحمل في جانب منها الروحانية للإنسان، بينما تحمل في الجانب الآخر حاجته المادية، وتحقيقًا كذلك لواقعية الحضارة الإسلامية في تعاملها مع المراحل الزمنية التي تمر بها.

إن المدنية المعاصرة ليست وليدة اللحظة التاريخية، بل هي فعل تراكمي أدى إلى ما وصلت إليه الأمم المعاصرة من نهضة علمية وفتوحات تقنية جعلت أصحابها في مقدمة الأمم، بل جعلتهم أمة غالبة.. ومهما استطاعت الأمم الأخرى أن تحصل على حاجتها من التقدم العلمي ومهما أفاضت عليها الأمم المتقدمة مما عندها من علوم ومعارف، فإن ذلك لا يغني عن استنبات هذه المعارف والعلوم في الأرض المسلمة، إذ يمر القرار السياسي والاقتصادي والعسكري المعاصر من بوابة العلوم والتقانة.. والاستقلال بها استقلال بالقرار وقدرة على تنفيذه.

إن دعوات العجز والتخلف و(هدم) الذات، لن تضع الأمة المسلمة في أي موقع علمي متقدم، مثلها مثل دعوات التبعية العلمية للاستفادة مما حققه الآخرون.. كما أن تلك الدعوى إقرار بالواقع (المتخلف) الذي يعيشه المسلمون، إذ هم لا يشكلون في عالم التقدم المدني الحديث نسبًا تذكر أو مؤشر واضح، إذ تأتي معظم الدول

(1) انظر: العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، دراسة مقارنة، سعيد حارب، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الإســـلامية في موقع متأخر من تصنيف التقارير الدولية الباحثة في الشـأن العلمي أو التنموي، بل إن معظم الدول الإسلامية تصنف بين دول نامية أو أقل نموًا، وتحتل أرقامًا بعد المائة في تقرير التنمية البشرية.. ولا يحظى العلم أو البحث العلمي بتقدير واضح لديها، إذ لا يتجاوز الإنفاق على البحث العلمي بين 0.2% و 1.0% من الناتج الوطني الإجمالي للدول الإسلامية، بينما تنفق دول كاليابان 2.8%، والولايات المتحدة الأمريكية 2،7% من ناتجها الوطني الإجمالي على البحث العلمي.. بينما يأتي النشـر العلمـي في مرتبـة متـأخرة، إذ لا يتجـاوز 0.28% أو 0.008% في دول أخرى.. أما نسبة إسهام الدول الإسلامية مجتمعة في النشر فلا يتجاوز 1.053% من النشر العالمي، بينما تحتل دول مثل الولايات المتحدة الأمريكية 30.817%، واليابان 8.244%، والمملكة المتحدة 7.924%، وألمانيا 7.148%، وسويسرا 1.64% من النشر العلمي[1].

علماً بأن الأمة المسلمة تملك من الإمكانيات المادية والبشرية ما يؤهلها للقيام بهذا الدور المنشود، فمواردها الطبيعية مهيأة للاستغلال متى ما توفرت لها الأموال اللازمة والإمكانات العلمية والتقنية والأيدي الماهرة المدربة، ويكفي أن نشير إلى أن الأراضي الصالحة للزراعة في البلدان الإسلامية تتجاوز 4071846.000 هكتار.. وتشكل البلدان الإسلامية حوالي عشرين بالمائة من سكان العالم وخمسة وعشرين بالمائة من سكان العالم الثالث[2].. وإلى جانب الإمكانات الطبيعية فإن البلدان الإسلامية لديها إمـكانات بشرية كبـيرة من العلمـاء والباحثـين، إلا أنـهم لا يـجدون فرصتهم في البحث والإبداع والاختراع في بلدانهم فيهـاجرون إلى دول العالم المتـقـدم لتخسرهم

(1) انظر: آليات تنفيذ استراتيجية تطوير التعليم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، يونيو 1999م.
(2) العرب وتحديات العلم والتقانة، انطوان زحلان، ص 232.

بلدانهم مرتين، مرة حين أنفقت عليهم من مواردها لتعليمهم، ومرة أخرى حين هاجروا إلى خارج أوطانهم.

«إن هجرة الأدمغة ظاهرة تضررت منها البلدان النامية كافة، وبخاصة البلدان الإسلامية التي تفقد من جراء ذلك باستمرار عددًا من كفاءاتها العلمية والتقنية لصالح البلدان المتقدمة. فخلال العقدين الأخيرين خسرت باكستان ومصر وإيران وسوريا وبنغلاديش وتركيا والجزائر ولبنان والأردن عددًا هائلاً من أطرها ذوي الكفاءات العالية الذين هاجروا إلى البلدان المصنعة، وهي خسارة قد تقدر قيمتها الاقتصادية بمليارات الدولارات. وتنضاف إلى القائمة بلدان إسلامية أخرى أقل نموًا.. وستمتد هذه الظاهرة عاجلاً أو آجلاً لتشمل العالم الإسلامي برمته.

ويمكن تقدير عدد الأطر ذوي الكفاءات العالية من العالم الثالث الذين هاجروا إلى الدول المصنعة خلال العقدين الأخرين بحوالي 500000، وأغلب هؤلاء المهاجرين استقر في الولايات الأمريكية ثم أوروبا الغربية فكندا وأستراليا. ويمثل عدد المهاجرين من آسيا نسبة 55%، وأكثر البلدان الآسيوية الإسلامية تضررًا ثلاثة هي إيران وباكستان وتركيا. أما أكبر البلدان خسارة في العالم العربي فهي سوريا والأردن ولبنان. فباكستان على سبيل المثال، تفقد حوالي 60% من مجموع أطبائها المتخرجين سنويًا، بينما تفقد إيران وسوريا على التوالي 30، 40%، وكان المهاجرون من دول أفريقيا يتجهون بشكل خاص صوب أوروبا الغربية، فمنذ بداية 1975م هاجر ثلث القوة العاملة المؤهلة من شمال إفريقيا نحو فرنسا. ومن المفارقات الجديرة بالملاحظة هنا أن أغلب أساتذة العلم في البلدان الإفريقية هم من البيض الفرنسيين في حين أن معظم الأطر الوطنية من المهندسين والعلماء غادروا بلدانهم للعمل في الخارج» [1].

(1) انظر: آليات تنفيذ استراتيجية تطوير التعليم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم.

واليوم والأمة المسلمة تقف على أعتاب مرحلة تاريخية مهمة، تراقب الأمم الأخرى وهي ترقى إلى مراقي الصعود المدني والحضاري، لا يسعها أن تقف هذا الموقف، لأنه لا يناسب طبيعتها ودورها ورسالتها، بل هي في حاجة لعمل حضاري يعيدها لذاتها ويعيد ذاتيتها إليها، وذلك العمل لا يمكن أن يتم من خلال جهود محدودة ترتفع تارة لتخبو تارة أخرى، لأن فعلاً كهذا يحتاج إلى تضافر الجهود.

العمل الحضاري سواء كان إبداعياً أو استئنافيًا، هو عمل أمم وليس عمل أفراد، على معنى أن إنجاز التحضر لا يتأتى إلا بانخراط جماعي لأفراد أمة ما في عمل موحد يقوم به الأفراد في نطاق الهيئة الاجتماعية للأمة، فيكون الفاعل الحقيقي هو الهيئة الاجتماعية وليس الأفراد باعتبارهم أفرادًا.. وأي عمل مهما كان صغيرًا فإنه حينما يكون عملاً جماعيًا يتطلب مقتضيات يختلف بها في الكيف أو في النوع عن العمل الفردي، وإذا لم تتوفر له تلك المقتضيات فإنه لا يكون له النجاح في بلوغ هدفه.

وحينما يكون عمل الأمة عملاً حضاريًا بما يستلزم من شمولية وفخامة وكبير جهد، فإن التعبئة الجماعية التي يتطلبها والحشد الذي يستلزمه يكون من حجم يناسب ذلك العمل، وهو حجم يفوق كل تعبئة في الأعمال العادية المحدودة، ويمكن أن نطلق عليه تعبيرًا على تميزه النوعي هذا اسم: (النفير الحضاري).

إن النفير الحضاري هو عنصر أساس من العناصر العاملة في نشوء الحضارات.. فالأمم لا تصنع الحضارة إلا بهمة جماعية تحشد فيها قوى الفرد في نطاقه الداخلي، ثم تحشد قوى الأفراد حشدًا جماعيًا لتحقيق هدف معين تحمله الفكرة التي تحدد غاية الحياة.. والتاريخ يبين أن الحضارات على اختلافها لم تنشأ إلا بهذا الداعي من النفير الجماعي، وأن انحلال هذا النفير ووهنه هو سبب أساس في انحلال الحضارات وأيلولتها إلى التلاشي.

فالحضارة الإسلامية إنما نشأت من التعبئة الجماعية التي عبأت بها عقيدة التوحيد جموعًا من الناس كانت شتاتًا في الجزيرة العربية وفي خارجها، فإذا هم ينفرون بالعقيدة الجديدة في أمة موحدة ليصنعوا حضارة مشهودة، ولولا ذلك النفير الجماعي الذي أحدثه فيهم التوحيد ما نشأت تلك الحضارة.. فقد بقي البدو في الجزيرة العربية زمنًا طويلاً يعوقهم التشتت عن الإنشاء الحضاري، إذ لم يكن يحشد قوى الفرد فيه غاية عليا للحياة، ولم يكن يجمع الأفراد هدف مشترك يعبئ فيهم الإرادة الجماعية لينطلقوا في نفير جماعي لإنشاء التحضر. فقد كان واضحًا إذن أن الاندفاع الجماعي كان عاملاً أساسًا في إنشاء الحضارة الإسلامية.

وحينما اكتُشف العالم الجديد، وهاجرت إليه جموع من الأوروبيين، فإن هذه الجموع التقت هناك على فكرة جامعة تتمثل في إقامة الحياة الحرة في الأرض البكر البالغة الثراء، وقد كانوا في أغلبهم يهاجرون بسبب من الاضطهاد المتعدد الألوان في أوروبا التي أُنهكت أيضًا وأوشكت أن تنضب مواردها فتضيق بأهلها.. وهناك في الأرض الجديدة التقت الإرادة على هدف جامع هو إقامة مجتمع الحرية والاستمتاع بالرفاه المادي باستثمار الموارد البكر في تلك الأرض، فحشد هذا الهدفُ الجموعَ المهاجرة والأجيال التالية لها، وعبأها في نفير جماعي صنعت به الحضارة المشهودة الآن هناك.. وهي وإن تكن جذورها أوروبية، إلا أن ما بلغته من القوة فاقت به الأصل في عالمها الجديد، وما كان ليحدث لولا النفير الجماعي الذي هب به المهاجرون للإنشاء الحضاري.

يتبين من هذه الأمثلة أن كل حركة تحضر سواء كانت حركة ابتداء أو حركة إعادة، فإنها تتوقف إلى حد كبير على معنى الدفاع الذي يندفع به الفرد في تجنيد مواهبه وقواه في سبيل العمل، وتندفع به الهيئة الاجتماعية في توافقها وتعاونها واتحاد

مشاربها، فيكون الانطلاق في زخم شديد تلتقي فيه كل القدرات الفردية والجماعية، وبه يتحقق البناء الحضاري ابتداءً أو إعادةً، وذلك ما نعني بالنفير الحضاري.

إن الأمة الإسلامية اليوم تتوفر على قدر من الاعتقاد الصحيح، كما إنها تتوفر على قدر من الفكر السديد، وذلك ما يبدو جزء منه في القاعدة العريضة من الناس متمثلًا في استصحاب قدر من التدين بالإسلام، والتثقف بثقافته، ويبدو بصفة جلية متقدمة في سلم الكمال عند الكثير من الأفراد والدول، ولكن هذا القدر الذي تتوفر عليه الأمة من ذلك لا يقابله قدر من التقدم في العمل الحضاري، بحيث يصح القول: إن أداء الأمة في التعمير يقل بكثير من لتقدم في العمل الحضاري، بحيث يصح القول إن أداء الأمة في التعمير يقل بكثير عن حظوظها من الفكر والتدين، بل حظوظها من الإمكانات المتاحة وبين مقدار الأداء وتعمير الأرض!

نحسب أن السبب الأساس في ذلك هو أن الأمة لا تعيش حالة من إرادة التحضر من شأنها أن تدفع بها إلى الإنجاز، فتوظف ما بين أيديها من الإمكانات المعنوية والمادية في حركة البناء.. وبتعبير آخر، فإن السبب الأساس في ذلك هو عدم حصول حالة النفير الحضاري التي تهب فيها الأمة هبة جماعية، لتنطلق من إمكاناتها مهما تكن متواضعة، في حركة بناء تنمو فيها تلك الإمكانات ذاتها، وتفضي إلى إنجاز على طريق التحضر.. ففي خضم حركة النفير تتولد القدرات والإمكانات، ويتم تفعيلها في الترقية المادية والمعنوية، ولكن في غياب النفير قد تظل القدرات والإمكانات -وإن كانت متوفرة- ركامًا لا يثمر شيئًا في سلم الترقي[1].

إن النفير الحضاري هو البداية لعمل حضاري تسهم به الأمة المسلمة في عالم الغد، حتى تحقق الدور الحضاري الجديد، أو تجدد القديم منه، بروح تتعامل مع حقائق

(1) انظر: عوامل الشهود الحضاري، د. عبد المجيد النجار، ص189وما بعدها، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الإسلام بواقع العصر.